**-الدّرس رقم(03):الدرس الصوتي عند القدماء(2)**

**1-1-الدرس الصوتي عند علماء اللغة:**

تأسست هذه المجموعة(التوجّه) بظهور أول معجم في العربية، وهو كتاب العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) والذي بُني على أساس صوتي، وصدِّر بمقدمة صوتية تعد أول دراسة صوتية منظمة وصلت إلينا في تاريخ الفكر اللغوي عند العرب([[1]](#footnote-2)). لما لا وصاحبها موسوعة في علوم شتى من النحو والصرف والعروض والموسيقى والشعر والمعجم.

وكان الخليل أسبق من ذاق الحروف ليتعرف مخارجها:حيث كان يعتمد على تذوق الأصوات بفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو: **ابْ**، **اتْ**، **احْ**، **اعْ**، **اغْ**، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب ثم ما قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم، فجعل لكل حرف بابا([[2]](#footnote-3)). لكن العمل البارز كذلك للخليل هو ترتيبه لمخارج الأصوات من الداخل إلى الخارج، واعتماده على هذا الترتيب حتى في نظام التقليبات الصوتية لحصر المادة اللغوية في معجمه، وتمييزه بها للمادة المستخدمة والمهملة وما يمكن أن يستعمل لاحقا. فوصف في مقدمة معجمه مخارج الأصوات وحدد صفاتها.

وتلاه سيبويه في كتابه في النحو والصرف، حيث تضمن دراسات صوتية في باب الإدغام ، أوفت على الغاية دقةً وأهميةً، وتنوّعت بتنوع مادتها؛ فكان منها ما يتعلق باللهجات والمقايسة بينها والاستدلال لها([[3]](#footnote-4))، ومنها ما يعرض للقراءات([[4]](#footnote-5))، ومنها ما يتحدث عن ظواهر صوتية مختلفة كأحكام الهمز من تحقيق وتسهيل وهمزة بين بين([[5]](#footnote-6))، والإمالة والفتح وما يتعلق بهما من أحكام([[6]](#footnote-7)).. والإعلال والإبدال والتعليل الصوتي لهما([[7]](#footnote-8))... إلى غير ذلك من مباحث صوتية مبثوثة في طيَّات الكتاب بأجزائه الأربعة. ويستأثر الجزء الرابع بأجلّ هذه المباحث وهو باب الإدغام([[8]](#footnote-9)) الذي استهله سيبويه بذكر عدد الحروف العربية، ومخارجها، ومهموسها، ومجهورها، وأصولها وفروعها، وما إلى ذلك مما يدخل في تكوين النظام الصوتي العربي ليغدو أساساً ومرجعاً لكل من صنف في هذا الباب من النحاة واللغويين وحتى القراء([[9]](#footnote-10)).

ثم تتابعت كتب النحو واللغة بعد سيبويه تنحو نحوه وتقفو أثره في تخصيص حيّز للدراسات الصوتية مرددةً تعبيراته ومصطلحاته في كل ما يتعلق بمخارج الحروف وصفاتها([[10]](#footnote-11)) ـ وهو الباب الذي يعنينا هنا ـ وكان على رأسها، مما وصل إلينا، المقتضب([[11]](#footnote-12))للمبرد (285هـ) والأصول في النحو لابن السراج (316هـ) ورسالة الاشتقاق([[12]](#footnote-13)) له أيضاً، والجمهرة([[13]](#footnote-14)) لابن دريد (312هـ) والجمل([[14]](#footnote-15)) للزجاجي (340هـ) والتهذيب([[15]](#footnote-16)) للأزهري (370هـ). ومما يدخل في هذا الباب شروح سيبويه المختلفة وفي مقدمتها شرح السيرافي (368هـ) والأعلم الشنتمري([[16]](#footnote-17)) (476هـ) وشرح أبي علي الفارسي (377هـ) المسمى (تعليقة على كتاب سيبويه)([[17]](#footnote-18)).

وتلا ذلك كتاب المفصل للزمخشري (538هـ) الذي نسج على منوال سيبويه أيضاً فختم كتابه بباب الإدغام مستهلاً بذكر حروف العربية ومخارجها وصفاتها([[18]](#footnote-19))، وكان بهذا المادةَ الصوتية التي بنى عليها ابنُ يعيش (643هت) شرحَهُ الغنيَّ بالدراسة الصوتية([[19]](#footnote-20)). ولا يكاد يدانيه في ذلك إلا الرضيُّ الأَسْتَراباذي (686هـ) في شرحه للشافية حيث تداخلت مباحث علم الصوت بمباحث علم الصرف([[20]](#footnote-21)).

أمّا أول من أفرد المباحث الصوتية بمؤلف مستقل بذاته ، ابنُ جني (392هـ) في كتابه سر صناعة الإعراب ، الذي بسط فيه الكلام على حروف العربية: مخارجها، وصفاتها، وأحوالها، وما يعرض لها من تغيير يؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف، والفرق بين الحرف والحركة، والحروف الفروع المستحسنة والمستقبحة، ومزج الحروف وتنافرها.. إلى غير ذلك من المباحث المعمقة، فعدَّ بحقٍّ رائدَ الدراسات الصوتية، وهو يعني ذلك إذ يقول: «وما علمتُ أن أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض، ولا أشبعه هذا الإشباع، ومن وجد قولاً قاله، والله يعين على الصواب بقدرته([[21]](#footnote-22))».

ومن هنا يمكن أن نجمل المباحث الصوتية عند ابن جني في سر صناعة الإعراب في ما يلي:

-عدّد حروف المعجم ورتبها .

-وصف مخارج الأصوات وصفا تشريحيا دقيقا.

-قارب بين ما يحدث في جهاز النطق وما يحدث في الآلات الموسيقية.

-بيّن الصفات العامة للحروف والخاصة منها وقسّمها أقساما مختلفة.

-بيّن ما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغيرات .

-أسهب في وصف الحركات ،و هي الدراسة التي كانت غائبة عند الخليل وسيبويه.

-تحدّث عن جوانب الفصاحة في اللفظ المفرد.

-تحدّث بل كان متحمسا للدلالتين الصرفية والصوتية في كتابه الآخر(الخصائص).

بعد هذا كله لا نكاد نجد في كتب المتأخرين من النحاة واللغويين ما يمكن أن يتّسم بالأصالة في دراسة أصوات اللغة، سوى تلك المحاولة التي جاءت في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي (626هـ) من رسم بدائي لأعضاء النطق([[22]](#footnote-23)).

1. 6- يراجع في هذا الباب فصل الأصوات اللغوية من كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدي للدكتور مهدي المخزومي 56 ـ 158. [↑](#footnote-ref-2)
2. 7- العين 1/47. [↑](#footnote-ref-3)
3. 8- انظر على سبيل المثال الكتاب 1/57 ـ 66،71 ـ 72 ،1/28 ـ 33، 36 ـ 37. [↑](#footnote-ref-4)
4. 9- انظر على سبيل المثال الكتاب 1/58، 59 71 (1/28، 29، 36) و2/91، 108 (1/262، 270). [↑](#footnote-ref-5)
5. 10- الكتاب 3/541 ـ 556 (2/163 ـ 171). [↑](#footnote-ref-6)
6. 11- الكتاب 4/117 ـ 135 (2/259 ـ 267). [↑](#footnote-ref-7)
7. 12- الكتاب 4/334 ـ 431 (2/356 ـ 404). [↑](#footnote-ref-8)
8. 13- الكتاب 4/431 ـ 485 (2/404 ـ 430). [↑](#footnote-ref-9)
9. 14- تناول كثير من اللسانيين المعاصرين مباحث الصوت في الكتاب بالدراسة والتتبع, أذكر منهم الأستاذ شاده في بحثه (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا). والدكتور إبراهيم أنيس في الأصوات اللغوية 111 ـ 135. والدكتور أحمد مختار عمر في البحث اللغوي عند العرب 91 ـ 109. والدكتور تمام حسان في اللغة العربية معناها ومبناها 50 ـ 63. والدكتور حسام النعيمي في الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني 57 ـ 59. [↑](#footnote-ref-10)
10. 15- الأصوات اللغوية 105, والبحث اللغوي عند العرب 106, وأثر القراءات في الأصوات 198. [↑](#footnote-ref-11)
11. 16- المقتضب 1/192 ـ 196. (باب مخارج الحروف) وهو الباب المقصود في كل الإحالات التالية. [↑](#footnote-ref-12)
12. 17- الأصول في النحو 3/399 ـ 404. ورسالة الاشتقاق 34 ـ 38. [↑](#footnote-ref-13)
13. 18- جمهرة اللغة 1/6 ـ 9. [↑](#footnote-ref-14)
14. 19- الجمل في النحو 409 ـ 413. [↑](#footnote-ref-15)
15. 20- تهذيب اللغة 1/48 ـ 51. [↑](#footnote-ref-16)
16. 21- في كتابه النكت في تفسير كتاب سيبويه 2/1242 ـ 1248. [↑](#footnote-ref-17)
17. 22- منها نسخة خطية في مكتبة شهيد علي باسطنبول . [↑](#footnote-ref-18)
18. 23- جاء الإدغام في المفصل تحت عنوان (ومن أصناف المشترك الإدغام).) المفصل 393 ـ 405). [↑](#footnote-ref-19)
19. 24- شرح المفصل 10/123 ـ 131 حيث بسط ابن يعيش الكلام على مخارج الحروف وصفاتها ثم تابع الكلام على الإدغام 10/131 ـ 155. وانظر الأصوات اللغوية د. إبراهيم أنيس 128 ـ 135 . [↑](#footnote-ref-20)
20. 25- شرح الشافية 3/220 ـ 264. [↑](#footnote-ref-21)
21. 26- سر صناعة الإعراب 1/63. وبعض الباحثين يعدّ ابن جني أول من استعمل مصطلح (علم الأصوات) وذلك بقوله في سر الصناعة للدلالة على هذا العلم 1/10:ولكن هذا القبيل من هذا العلم، أعني علم الأصوات والحروف, له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم. [↑](#footnote-ref-22)
22. 27- مفتاح العلوم 13. [↑](#footnote-ref-23)